

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ تَقْدِيرًا ۝٢٧ ﴾ [الفرقان] فخلق الله تعالى ليس خلقاً كما اتفق ، إنما خلقه سبحانه بقدر وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قدر مهمته التي يؤتيها ؛ لذلك قال في موضع آخر : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝١ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٢ ﴾ [الاعلى]

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ عَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا ۝٢٨ ﴾

أى : اتوا بالهة غير الله ، هذه الآلة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا تخلق شيئاً ، ربا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هي نفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الامران .

وهذه من الآيات التي وقف عندها المستشرقون وقالوا : إن فيها شبهة تناقض : لأن الله - سبحانه وتعالى - قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون] فثبت أن معه آخرين لهم صفة الخلق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم - وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۝١٩ ﴾ [ال عمران]

وللرد على هؤلاء نقول : تعالوا أولاً نفهم معنى الخلق ، الخلق : إيجاد لمعدوم ، كما مثلاً سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صهر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجده ، لكن من شيء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حالته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يوجد من معدوم : معدوماً من معدوم ، ويوجده على هيئة فيها حياة ونمو

وتكاثر من ذاته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَكُمْ تَذْكُرُونَ ﴾ (٤٩)

[الذاريات]

والذين يصنعون الآن الورد الصناعي ، ويحاولون جاهدين مضاعفة الورد الطبيعي الذي خلقه ، فيضعون عليه رائحة الورد ليتوفر لها الشكل والرائحة ، ثم ترى الورد الصناعية زاهية لا تدبّل ، لكن العظمة في الورد الطبيعية أنها تدبّل ؛ لأن ذبولها يدل على أن بها حياة .

لذلك سمى الله الإنسان خالقا ، فأنصفه واحترم إيجاده للمعدوم ، لكنه سبحانه أحسن الخالقين ، ووجه الحُسن أن الله تعالى خلق من لا شيء ، وأنت خلقت من موجود ، الله خلق خلقا فيه حياة ونمو وتكاثر ، وأنت خلقت شيئا جامداً على حالته الأولى ، ومع ذلك أنصفك ربك .

ففي قوله تعالى : ﴿ أَخْلَقْ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. ﴾ (٤٩) [آل عمران] معلوم أنه في مقدور كل إنسان أن يُصوّر من الطين طيراً ، ويُصمّمه على شكله ، لكن يُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طيراً ؟ وهل العظمة في تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة في أن تبعث فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ؛ لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٤٩) [آل عمران]

فإن سلّمنا أنهم يخلقون شيئا فهم في ذات الوقت مخلوقون ، والأدهى من هذا أن الذي يتخذونه إلها لا يستطيع حتى أن يحمي نفسه أو يقيعها ، إن أطلحت به الريح ، وإن كُسر ذراع الإله أخذوه ليُرموه ، الإله في يد العامل ليصلحه !! شيء عجيب وعقليات حمقاء .

لذلك يقول تعالى عن آلهتهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٧٣)

[الحج]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ حَرًّا وَلَا نَفْعًا...﴾ (٢) [الفرقان] يعني : لا تنفعهم إن عبدوها ، ولا تضرهم إن كفروا بها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٣) [الفرقان] أي : موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأنه من صفات الإله الحق الذي يُحْيِي وَيُمِيت ، ثم ينشر الناس في الآخرة . إذن : للإنسان مراحل متعددة ، فبعد أن كان عَدَمًا أوجده الله ، ثم يطرأ عليه الموت فيموت ، ثم يبعثه الله ، ويُحييه حياة الآخرة .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيْنَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤)

بعد أن تكلم الفرقان وفرّق في مسألة القمة والالوهية واتخاذ الولد والشركاء ، وبين الإله الحق من الإله الباطل . أراد سبحانه أن يتكلم عن الفرقان في الرسالة ، فيحكي ما قاله الكفار عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ (٤) [الفرقان] يعني : ما هذا - أي القرآن - الذي يقوله محمد ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ (٤) [الفرقان] الإفك : تعمّد الكذب الذي يقلب الحقائق ، وسبق أن قلنا : إن النسبة الكلامية إن وافقت الواقع فهي صدق ، وإن خالفته فهي كذب .

والإفك قلب للواقع يجعل الموجود غير موجود ، وغير الموجود موجوداً ، كما جاء في حادثة الإفك حين اتهموا عائشة أم المؤمنين بما يخالف الواقع ، فالواقع أن صفوان^(١) اتاخ لها ناقته حتى ركبت

(١) هو - صفوان بن السمل بن رجّة السلمي الذكواني ، أبو عمرو : صحابي ، شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بدمية عام ١٩ هـ [الإعلام للزركلي ٢٠٦/٢] .

دون أن ينتظر إليها . وهذا يدل على منتهى الحفّة والصيانة ، وهم بالإفك جعلوا الطُّهْر والعفة عَهْرًا .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين اتهموا القرآن بأنه إفك هم أنفسهم الذين قالوا عنه :

﴿ لَوْلَا نَزَلَ الْقرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٢٦) [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويشهدون له ، لكن يتعيبهم وينقص عليهم أن ينزل على محمد بالذات ، فلو نزل - فرضاً - على غير محمد لآمنوا به .

ومن حمقهم أن يقولوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٧) [الأنفال]

والمنطق أن يقولوا فاهْدِنَا إِلَيْهِ ، لكنه العناد والمكابرة .

وقوله : ﴿ افْتَرَاهُ .. ﴾ (٤) [الفرقان] أى : ادعاه ، وعجيب أمر هؤلاء ، يتهمون القرآن بأنه إفك مُفْتَرى ، فلماذا لا يفترون هم أيضاً مثله ، وهم أمة بلاغة وبيان ؟

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (٦٣) [النحل]

وقديماً قالوا : إِنْ كُنْتَ كَذُوبًا فَكُنْ ذَكُورًا ، وإلا فكيف تتهمون محمداً أن رجلاً أعجمياً يُعَلِّمُهُ القرآن ، والقرآن عربى ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .. ﴾ (٤) [الفرقان] الذى قال هذه المقولة هو النضر بن الحارث ، ولما قالها ردها بعده آخرون أمثال : عدّاس ، ويسّار ، وأبى فكيهة الرومى ، والقرآن يرد على كل هذه الاتهامات : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا ﴾ (٤) [الفرقان] أى : حكموا به

والظلم هو : الحكم بغير الحق ، والزور هو : عُدَّةُ الحكم ودليله . والظلم يأتي بعد الزور ، لأن القاضي يستمع أولاً إلى الشهادة ، ثم يُرتَّب عليها الحكم ، فإن كانت الشهادة شهادة زور كان الحكم حينئذ ظلماً .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول ﴿ ظَلَمُوا وَزُورُوا ﴾ (٣) [الفرقان] وهذا دليل على أن الحكم جاء منهم مُسبقاً ، ثم التمسوا له دليلاً . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا اسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾

الاساطير : جمع اسطورة ، مثل : أعاجيب جمع أعجوبة ، وأحاديث جمع أحدث ، والبكرة أول النهار ، والأصيل آخره ، والمعنى أنهم قالوا عن القرآن : إنه حكايات وأساطير السابقين ﴿ اكْتَتَبَهَا .. ﴾ (٥) [الفرقان] يعنى : أمر بكتابتها ، وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم . فالنبي ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم : ﴿ فَهِيَ تُمْنَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٥) [الفرقان] أى : باستمرار ليكررها ويحفظها . ويرد القرآن عليهم :

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٦ ﴾

﴿ أَنْزَلَهُ .. ﴾ (٦) [الفرقان] أى : القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٦) [الفرقان] فلا تظن أنك بمجرد خلقك قدرت أن تكشف أسرار الله في

كونه ، إنما ستظل إلى قيام الساعة تنف على سر ، وتقف عند سر آخر .

لماذا ؟ لأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يبطل هذه المدعيات ، ويأتى بأشياء غيبية لم تكن تخطر على بال المعاصرين لمحمد ، ثم تتضح هذه الأشياء على مرِّ القرون ، مع أن القرآن نزل في أمة أمية ، والرسول الذي نزل عليه القرآن رجل أمي ، ومع ذلك يكشف لنا القرآن كل يوم عن آية جديدة من آيات الله .

كما قال سبحانه : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ .. ﴾ (٥٢) [فصلت]

والحق - تبارك وتعالى - يكشف لرسوله ﷺ شيئاً من الغيبيات ، ليراها المعاصرون له ليلقم الكفار الذين اتهموه حجراً ، فيكشف بعض الأسرار كما حدث في بدر حيث وقف النبي ﷺ في ساحة المعركة بعد أن عرف أن مكة ألقت بقلذات أكبادها وسادتها في المعركة ، وقف يشير بعصاه إلى مصارع الكفار ، ويقول « هذا مصرع أبي جهل ، وهذا مصرع عتبة بن ربيعة .. »^(١) .. الخ يخطط على الأرض مصارع القوم .

ومن الذي يستطيع أن يحكم مسبقاً في معركة فيها كَرٌّ وفَرٌّ ، وضَرْبٌ وانتقال وحركة ، ثم يقول : سيموت فلان في هذا المكان .
والوليد بن المغيرة والذي قال عنه القرآن^(٢) ﴿ سَنَسُومُهُ عَلَى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد في مستدركه (٢١٩/٢ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك . قال : فما ماط المدمم عن موضع يد رسول الله ﷺ . قال النووي : فما ماط . أي فما تباعد .

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٦٦٢/٨) : « اختلف في الذي نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحيى بن سلام في تفسيره . وقيل : الأسود بن هيثم ذكره سفيان بن داود في تفسيره . وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلي عن القتيبي . وحكى هذين القولين الطبري » .

الْخُرُطُومُ ﴿١٦﴾ [القلم] يعنى : ستاتيه ضربة على أنفه تسميه بسمة تلازمه ، وبعد المعركة يتفقدوه القوم فيجدونه كذلك .

هذه كلها أسرار من أسرار الكون يخبر بها الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ ، والرسول يخبر بها أمته فى غير مظنة العلم بها .

ومن ذلك ما يُروى من أن ابنتى رسول الله ﷺ قد تزوجتا من ولدين لأبى لهب ، فلما حدثت العداوة بينه وبين رسول الله أمر ولديه بتطليق ابنتى رسول الله ، وبعدها رأى أحد الولدين رسول الله ماشياً ، فبصق ناحيته ، ورأى رسول الله ذلك فقال له : « أكلك كلب^(١) من كلاب الله »^(٢) . فقال أبو لهب بعد أن علم بهذه الدعوة : أخاف على ولدى من دعوة محمد .

وعجيب أن يخاف هذا الكافر من دعوة رسول الله ، وهو الذى يتهمه بالسحر وبالكذب ويكفر به وبدعوته .

ولما خرج هذا الرلد فى رحلة التجارة إلى الشام أوصى به القوم أن يحرسوه ، ويجعلوا حوله سياجاً من بضائعهم يحميه خشية أن تنفذ فيه دعوة محمد ، وهذا منه كلام غير منطقي ، فهو يعلم صدق النبى ﷺ وأنه مُرسَل من عند الله ، لكن يمتنع من الإيمان بحقه على رسول الله وتكبره على الحق .

(١) الكلب - كل سبع عقور ، ومنه الأسد ، قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع الناجح . وقد يكون التكليل واقعاً على الفهد وسباع الطير ، [لسان العرب - مادة : كلب] . وانظر فتح الباري (٢٩/٤) .

(٢) وذلك أن عثية بن أبى لهب حين فارق أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ جاء النبى وقال كسرت يديك . وفارقت ابنك . لا تمبىنى ولا أحبك . ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ : « أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » أخرجه البيهقي فى دلائل النبوة (٢٢٨/٢ ، ٢٢٩) ، وأورده الهيثمي فى مجمع الزوائد (١٩/٦) وعزاه للطبراني مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف ، وقد أخرجه الحاكم فى مستدرکه (٥٢٩/٢) من حديث أبى عفر وصححه ، وصححه ابن حجر فى الفتح (٢٩/٤) .

وخرج الولد في رحلة التجارة ورغم احتياطهم في حمايته هجم عليه سبع في إحدى الليالي واختطفه من بين أصحابه ، فتعجبوا لأن رسول الله قال : كلب من كلاب الله ، وهذا أسد ليس كلباً . قال أهل العلم : ما دام أن رسول الله نسب الكلب إلى الله ، فكلب الله لا يكون إلا أسداً .

فالعننى : قل يا محمد في الرد عليهم ولإبطال دعاوهم : ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ [٦] [الفرقان] وسوف يفضحكم ويبيطل افتراءكم على رسول الله من قولكم إفاك وكذب وافتراء وأساطير الأولين ، وسوف يخزيكم أمام أعين الناس جميعاً .

وعلى عهد رسول الله قامت معركة بين الفرس والروم غلبت فيها الروم ، فحزن رسول الله لهزيمة الروم : لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالرسل ، أما الفرس فكانوا كفاراً لا يؤمنون بالله ويعبدون النار وغيرها . فمع أنهما يتفان في تكذيبهم لرسول الله ، إلا أن إيمان الروم بالله جعل رسول الله يتعصب لهم مع أنهم كافرون به ، فعصبية رسول الله لا تكون إلا لربه عز وجل .

فلما حزن رسول الله لذلك أنزل الله تعالى عليه : ﴿ أَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ (١) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٢) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٣) بِنَصْرِ اللَّهِ (٤) ﴾ [الروم]

فأى عقل يستطيع أن يحكم على معركة ستحدث بعد عدة سنوات ؟ لو أن المعركة ستحدث غداً لأمكن التنبؤ بنتيجتها ، بناءً على حساب العدد والعدة والإمكانات العسكرية ، لكن من يحكم على معركة متدور رحاها بعد سبع سنين ؟ ومن يجرو أن يقولها قرأنا يُتلى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة . فلو أن هذه العدة مرت ولم يحدث ما أخبر به رسول الله لكفر به من آمن وانفض عنه من حوله .

إِذْ : مَا قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ قِرَاءًا يُتْلَى وَيُتَعَبَّدُ بِهِ إِلَّا وَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ صِدْقِ مَا يُخْبِرُ بِهِ ! لِأَنَّ الَّذِي يُخْبِرُهُ رَبُّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : لِذَلِكَ قَالَ هُنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٦)

[الفرقان]

ومن العجيب أن ينتصر الروم على القُرس في نفس اليوم الذي انتصر فيه الإيمان على الكفر في غزوة بدر ، هذا اليوم الذي قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَذِيْفَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ . . ﴿ ٥ ﴾ [الروم]

وما دام أن الذي أنزل القرآن هو سبحانه الذي يعلم السر في
السموات والأرض ، فلن يحدث تضارب أبداً بين منطوق القرآن
ومنطوق الأكوان : لأن خالقهما واحد - سبحانه وتعالى - فمن أين
يأتي الاختلاف أو التضارب ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٦) [الفرقان] فما مناسبة الحديث عن المغفرة والرحمة هنا ؟ قالوا : لأن الله - تبارك وتعالى - يريد أن يترك لهؤلاء القوم الذين يفرغهم مجالاً للتوبة وطريقاً للعودة إليه - عز وجل - وإلى ساحة الإيمان .

لذلك يقول النبي ﷺ لمن أشار عليه بقتل الكفار : « لعل الله يُخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »^(١)

وكان الصحابة يأمون أشد الأمم إن أفلتَ أحدٌ رهوس الكفر من

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٢٢٢٦ . ٧٢٨٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٧٩٥) عن حديث عائشة رضي الله عنها أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليه ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فتنادي ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يُمجد الله ويحده لا يشرك به .

القتل في المعركة ، كما حدث مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل إسلامهما ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدخرهم للإسلام فيما بعد .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان] حتى لا يقطع سبيل العودة إلى الإيمان بمحمد على مَنْ كان كافرًا به ، فيقول لهم : على رغم ما حدث منكم . إِنَّ عُدَّتُمْ إِلَى الْجَادَةِ وَإِلَى حَظِيرَةِ الْإِيمَانِ فَفِي أَنْتِظَارِكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ .

والحق - تبارك وتعالى - يُبَيِّنُ لنا هذه المسألة حتى في النزوع العاطفي عند الخلق ، فهذه بنت عتبة^(١) التي أغرت وَحُشِيًا^(٢) بقتل حمزة عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله ، ولم تكتف بهذا ، بل مَلَّتْ به بعد مقتلته ، وَلَا كَتَّ^(٣) كبده رضي الله عنه ، ومع ذلك بعد أن أسلمت وبايعت النبي ﷺ نُسِيت لها هذه الفعلة وكأنها لم تَكُنْ .

ولما قال أحدهم لعمر بن الخطاب : هذا قاتل أخيك (يشير إليه) والمراد زيد بن الخطاب^(٤) ، فما كان من عمر إلا أن قال : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

(١) هي : هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية ، والدة معاوية بن أبي سفيان ، شهدت أحدًا في جانب المشركين وفعلت ما فعلت بحمزة ، وقد أسلمت يوم الفتح ، ماتت في خلافة عثمان . (الإصابة في تمييز الصحابة ٢٠٦/٨) .

(٢) مو . وحشي بن حرب الحبشي مولى بني نوفل ، وهو قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله يوم أحد ، وقد أمره النبي ﷺ أن يغيب وجهه عنه ، وقد شارك في حروب الردة في قتل مسيلمة وقد شهد سوقة اليرموك ثم سكن حمص ومات بها ، وقد عاش إلى خلافة عثمان . (الإصابة ترجمة ٩١١٠) .

(٣) لاك - مضغ . وهو مضغ الشيء المضغ تديره في فمك . واللوك : إدارة الشيء في الفم . [لسان العرب - مادة : لوك] .

(٤) هو : زيد بن الخطاب بن ثعلبة العدوي ، أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، أمه اسماء بنت وهب من بني أسد ، أما أم عمر فهي حنتمة بنت هاشم المخزومية ، وكان زيد أكبر سنًا من عمر وأسلم قبله وشهد بدرًا والمشاهد واستشهد بالبيعة . [تمييز الصحابة ٢٧/٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ
وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ
فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾

عجيب أمر هؤلاء المعاندين : يعترضون على رسول الله أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسب العيش ، فهل سبق لهم أن رأوا نبياً لا يأكل الطعام ، ولا يمشي في الأسواق ؟ ولو أن الأمر كذلك لكان لا اعتراضهم معنى . إذن : قولهم ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۝٧﴾ [الفرقان] قول بلا حجة من الواقع ، ليستدركوا بهذه المسألة على رسول الله .

فماذا يريدون ؟

قالوا : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان] صحيح أن الملك لا يأكل ، لكن معنى ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ ۝٧﴾ [الفرقان] معنى : يسأله . وفي هذه الحالة لن يغير من الأمر شيئاً ، وسيظل كلام محمد هو لا يتغير . إذن : لن يضيف الملك جديداً إلى الرسالة .. وعليه ، فكلامهم هذا سفسطة وجدل لا معنى له .

وكلمة ﴿ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان] لم يقولوا بشيراً . مما يدل على اللند واللجاج ، وأنهم لن يؤمنوا ؛ لذلك لن يفارقهم الإنذار .

﴿ أَوْ يُلَقَّ إِلَيْنَا كَذِبٌ أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا أَوْ قَالِ الظَّالِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾

تلاحظ أنهم يتنزلون في لَدَدِهِمْ وَجَدَلَهُمْ ، فبعد أن طلبوا ملكاً يقولون ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ۝٨ ﴾ [الفرقان] أى : ينزل عليه ليعيش منه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۝٨ ﴾ [الفرقان] أى : بستان ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨ ﴾ [الفرقان]

والمسحور هو الذى تهب السُّحُور بعقله ، والعقل هو الذى يختار بين البدائل ويرتّب التصرفات ، ففأقد العقل لا يمكن أن يكون منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خلقه وأمانته ، وتُسَمُّونه « الصّديق الأمين » وتعرفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، كيف تقولون عنه مجنون ؟

لذلك يقول تعالى ردّاً عليهم : ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِعِزَّةٍ رَبِّكَ بِمُجْتَنُونَ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]

والخلق يسرى تصرفات الإنسان فيجعلها مُسْعِدة غير مفسدة ، فكيف - إذن - يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ إذن : ليس محمد مسحوراً ، وفى موضع آخر قالوا : ساحر ، وعلى فرض أنه ﷺ ساحر ، فلماذا لم يسحرهم كما سحر المؤمنين به ؟ إنه لَجَج الباطل وتخبطه واضطرابه فى المجابهة ، ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ ﴾

﴿ انظر... ۝٩ ﴾ [النور] خطاب لإيفاس رسول الله وتطمينه ﴿ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ۝٩ ﴾ [الفرقان] أى : اتهموك بشئى التهم فقالوا ساحر ، وقالوا : مسحور ، وقالوا : شاعر ، وقالوا : كاهن ﴿ فَضَلُّوا

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ [الفرقان] لَانْهُمْ يَقُولُونَ كَذِبًا وَهَرَاءَ وَتَنَاقُضًا فِي الْقَوْلِ .

﴿ فَضَلُّوا .. ﴿٩﴾ [الفرقان] أَيْ : عَنْ الْحَقِّ الَّذِي يَصْدُقُ فِيكَ لِيَصْرِفَ عَنْكَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ ، وَيَجْعَلَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا يُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ ، فَلَمْ يَصَادَفُوا وَلَوْ مَثَلًا وَاحِدًا ، فَقَالُوا : سَاحِرٌ وَكَذِبُوا وَقَالُوا : مَسْحُورٌ وَكَذَبُوا ﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ [الفرقان] أَيْ : إِلَى ذَلِكَ .
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ^(١) :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ تَبَارَكَ .. ﴿١٠﴾ [الفرقان] كَمَا قُلْنَا : تَذَرُهُ وَعَظَمَ خَيْرُهُ : لَأَنَّ الْكَلَامَ هُنَا أَيْضًا فِيهِ عَطَاءٌ مُتِمِّلٌ فِي الْخَيْرِ الَّذِي سَأَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ، فَعَطَاؤُهُ سُبْحَانَهُ دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ ، بِحَيْثُ لَا يَقِفُ خَيْرٌ عِنْدَ عَطَانِهِ ، بَلْ يَظَلُّ عَطَاؤُهُ خَيْرًا مُوَصُولًا ، فَإِذَا أَعْطَاكَ الْيَوْمَ عَرَفْتَ أَنَّ مَا عِنْدَهُ فِي الْغَدِ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَاكَ بِالْأَمْسِ .

(١) سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْفَاقَةِ قَالُوا : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ حَزَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَغَضِبَ جِبْرِيلُ مِنْ حُزْنِهِ مِمَّا زَيَّا لَهُ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، رَبُّ الْعِزَّةِ يَقْرُوكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ [الفرقان] وَقَالَ جِبْرِيلُ ، أَيُّشِرُ يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا رِضْوَانٌ خَازِنُ الْجَنَّةِ قَدْ أَتَاكَ بِالرُّضَا مِنْ رَبِّكَ ، فَاقْبَلْ رِضْوَانَهُ حَتَّى سَلِمَ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ رَبُّ الْعِزَّةِ يَقْرُوكَ السَّلَامَ ، وَمَعَهُ سِفْطٌ مِنْ نُورٍ يَتَلَاوُا وَيَقُولُ لَكَ رَبُّكَ : هَذِهِ مِفْتَاحُ خَزَائِنِ الْعَنِيَا مَعَ مَا لَا يَنْتَقِمُ لَكَ مَا عِنْدَ نَفْسِ الْآخِرَةِ مِثْلُ جَنَاحِ يَحْيَى . فَقَالَ : يَا رِضْوَانُ ، لَا حَاجَةَ لِي نَبِيهَا ، الْفَقْرُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَنْ أَكُونَ عَبْدًا صَاحِبًا شُكُورًا . بِتَصْرِيفٍ وَاجْتِمَاعٍ [مِنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ لِلوَاحِدِ النَّبِيِّ ص ١٩٠ ، ١٩١] ، وَ [تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ ٤٨٦٦/٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ
كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١٦ ﴾

يُضْرَبُ السِّيَاقُ عَنِ الْكَلَامِ السَّابِقِ ، وَيَعُودُ إِلَى مَسْأَلَةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ فِي مَصْلَحَتِهِمْ ، فَالْإِيمَانُ يَقْتَضِي حِسَابًا وَجَزَاءً ، وَهُمْ يَرِيدُونَ التَّمَادِي فِي بَاطِلِهِمْ وَالِاسْتِمْرَارَ فِي لُغْوِهِمْ وَاسْتِهْثَارِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ ؛ لِذَلِكَ يُكَذِّبُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُخْدَعُونَهَا لِيُظَلُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ .

وَلِذَلِكَ تَرَى الَّذِينَ يُسْرِفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَادِيِّينَ وَالْمُلَاحِدَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ يَتَمَتَّعُونَ أَنْ تَكُونَ قَضِيَّةُ الدِّينِ قَضِيَّةً فَاسِدَةً كَاذِبَةً ، فَيُنْكِرُونَهَا بِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوَّةٍ ، فَالَّذِينَ عِنْدَهُمْ أَمْرٌ غَيْرٌ مَعْقُولٌ ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ أَقْرَأُوا بِهِ فَمَصِيبَتُهُمْ كَبِيرَةٌ .

وَمَعْنَى : ﴿ أَعْتَدْنَا .. (١٦) ﴾ [الفرقان] هِيَ أَنَا وَأَعْدَدْنَا لَهُمْ سَعِيرًا ؛ لِأَنَّ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ بِالسَّاعَةِ هُوَ الَّذِي جَرَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِهَا وَبِلِقَاءِ اللَّهِ وَبِالْحِسَابِ وَبِالْجَزَاءِ لَاهْتَدَوْا ، وَاعْتَدَلُوا عَلَى الْجَادَةِ ، وَلَنَجَّوْا مِنْ هَذَا السَّعِيرِ .

وَالسَّعِيرُ : اسْمٌ لِلنَّارِ الْمَسْعُورَةِ الَّتِي تَلْتَهُمْ كُلُّ مَا أَمَامَهَا ، كَمَا نَقُولُ : كَلَّبَ مَسْعُورٌ ، ثُمَّ يَقُولُ سَبْحَانَهُ فِي وَصْفِهَا :

﴿ إِذَا رَأَوْهُمُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۝١٧ ﴾

يُرِيدُ الْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنْ يُشَخَّصَ لَنَا النَّارَ ، فَهِيَ تَرَى أَهْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ ، وَتَتَحَرَّشُ بِهِمْ تَرِيدُ مِنْ غِيْظِهَا أَنْ تَنْبَغَّ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهَا .
وَالْتَغِيْظُ : أَلَمٌ وَجْدَانِيٌّ فِي النَّفْسِ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَضِيقُ بِمَا يَجِدُ ،

ومن ذلك نسمع مَنْ يقولُ: (أنا ح أطق من جنابى) ، يعنى : نتسيجة ما بداخله من الغيظ لا يتسع له جوفه ، وما دام الغيظ فوق تحمل النفس وسعتها فلا بُد أن يشعر الإنسان بالضيق ، وأنه يكاد ينفجر .

لذلك يقول تعالى عن النار فى موضع آخر : ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (١) [الملك] تَمَيِّزُ يعنى : تكاد أبعاضها تنفصل بعضها عن بعض .

لكن ، لماذا تَمَيِّزُ النار من الغيظ ؟ قلوا : لأن الكون كله مُسَبِّح لله حامد شاكر لربه : لذلك يُسَرُّ بالطائع ويحبّه ، ويكره العاصي ، ألا ترى أن الوجود كله قد فرح لمولد النبى ﷺ ، فرح لمولده للجماد والنبات والحيوان واستبشر ، لأنه ﷺ جاء ليعيد للإنسان انسجامة مع الكون المخلوق له ، ويعدل الميزان .

ومع ذلك نرى من البشر العقلاء أصحاب الاختيار مَنْ يكفر ، لذلك تفتاظ النار من هؤلاء الذين شذّوا عن منظومة التسبيح والتحميد ورضوا لأنفسهم أن يكونوا أدنى من الجعاد والنبات والحيوان ، ومن ذلك يقولون : نَبأ بهم المكان من كفرهم ، يعنى الأماكن من الأرض تُنكرهم وتتضايق من وجودهم عليها ، كما تفرح الأرض بالطائع وتحبّيه ؛ لأنه منسجم معها ، المكان والمكين ينتظمان فى منظومة التسبيح والطاعة .

لذلك يُنبهنا إلى هذه المسألة الإمام على - رضى الله عنه - فيقول : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما فى الأرض فموضع مُصلّاه ؛ لأنه حُرِّم من صلاته ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب^(١) .

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لابن أبى حاتم أن علياً قال : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء » . وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان . باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلاهما ، فإذا مات نقده ويكيا عليه » قال الهيثمى فى المجمع « رواه أبو يعلى ، وفيه مرسل بن عبيدة الريدى ، وهو ضعيف » .

والحق - ببارك وتعالى - يظهر لنا هذه الصورة في قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٢٠) [ن] فالنار تنشوق لاهلها كالذي يأكل ولا يشبع ، فمهما أُلقي فيها من العصاة تقول : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٢٠) [ذ]

ومعنى ﴿زفيراً﴾ (١٢) [الفرقان] النفس الخارج . وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (٧) [الملك] فذكر أن لها شهيقاً وزفيراً ، وهي في المكان الضيق .

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبْحًا مُقَرَّرِينَ﴾^(١)
دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا^(٢) (١٣)

فجمع الله عليهم من العذاب ألواناً حتى يقول الواحد منهم لمجرد أن يرى العذاب : ﴿يَلْمِزُنِي كُنتَ تَرَايَا﴾ (٤٠) [النبا] وهنا يدعو بالويل والثبور ، يقول : يا ويلاه يا ثبوره يعنى : يا هلاكى تعال احضر ، فهذا أوانك لتُخلّصنى مما أنا فيه من العذاب ، فلن يُنجينى من العذاب إلا الهلاك ؛ لذلك يقولون : أشدّ من الموت الذى يطلب الموت على حدّ قول الشاعر :
كَفَى بِكَ دَاءَ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنِيَا أَنْ يَكُنْ أَمَانِيَا^(٣)
ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ، ويدعو به لنفسه .

(١) قال عبد الله بن مسعود : إن جهنم لتحسب على الكافر كتخصيب الزج على الرمح . ذكره ابن المبارك في رقائقه (٢٩٩ - زوائد الزهد) وأورده القرطبي في تفسيره (٤٨٧١/٦) .

(٢) مقرنين مكتفين قاله أبو صالح . وقيل : مصفدين قد قرئت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال . وقيل : قرنوا مع الشياطين ، أى قرّن كل واحد منهم إلى شيطانه . [أورده الأفعال القرطبي في تفسيره (٤٨٧١/٦)] .

(٣) البيت للمثنى (ديوانه ٢٨٦/٤) وذكره شهاب الدين محمود الحلبي في « صناعة الترسيل » (ص ٢٥٢) في شواهد حسن الابتدات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (١٤)

يُؤَيِّسُهُمُ الْحَقُّ - سبحانه وتعالى - وَيُيَكِّنُهُمْ : يا خبيثتكم
ويا ضياعكم ، لن ينفعكم أَنْ تَدْعُوا ثُبُورًا وَاحِدًا ، بل ادْعُوا ثُبُورًا
وَثُبُورًا وَثُبُورًا : لأنها مسألة لن تنتهي ، فسوف يُسَلِّمُكُمُ الْعَذَابُ إِلَى
عَذَابٍ ، حتى ينادوا : ﴿يَسْمَالُكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُفُونَ
(١٧٧)﴾ [الزخرف] وهو عذاب متجدد : ﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ
جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ.. (٥٦)﴾ [النساء]

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أُنْكَى لاهل الشر وَأَغْيِظَ
لهم ، فيذكر بعد العذاب الثواب على الخير وعِظَمُ الْجَزَاءِ عَلَى الطَّاعَةِ ،
ومثل هذه المقابلات كثيرة في كتاب الله ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ
الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

ويقول سبحانه : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٨٧)﴾ [التوبة]

وهنا بعد أن ذكر النار وما لها من شهيق وزفير ، يقول
سبحانه :

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ

الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ (١٥)

﴿قُلْ (١٥)﴾ [الفرقان] أمر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم
الذين اعترضوا على نبوته ﷺ باعتراضات واهية من المعاصرين له ،

وكانوا يتخبطون في هذه المسائل تخبط مَنْ لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أن يتعرّض لرسول الله في أمر دعوته ، والتعرّض لأيّ نبيٍّ في أمر دعونه من المعاصرين له أمر طبيعي ؛ لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشري الفساد .

وسبق أن قلنا : إن الحق - سبحانه وتعالى - جعل في كل نفس ملكة تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتي ملكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون المنافسة في ذات الإنسان ويُسْمَوْنَهَا النفس اللوامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملكة ، فتتعاون كل ملكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل ملكاتها أمارّة بالسوء . وهي أمارّة بصيغة المبالغة لا أمرة أي : أنها أخذت هذا الأمر حرفة لها .

كما لو رأيت رجلاً ينجرّ في قطعة من الخشب تقول له : ناجر ، فإن اتخذها حرفة له ، لا يعمل إلا هي ، تقول له : نجار ، ومثله : خائط وخياط . فالمعنى : أمارّة يعني : لم يعد لها عمل في أن تردع عن الشر ، بل دائماً تُقَوِّي نوازح الشر في النفس ، وتتأصل فيها حتى تصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بدّ أن يجعل الحق سبحانه في نفوس قوم آخرين ملكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه الأنفس الأمارّة بالسوء ، يواجهونهم بالنصح والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير . فإذا ما فسد المجتمع كله ، لا نفس مانعة ، ولا مجتمع مانع ، فلا بدّ أن تتدخل السماء برسول جديد .

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه ضمن لأمة محمد ﷺ أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أن يظل مجتمعها آمناً بالمعروف ،

ناهياً عن المنكر ؛ لذلك لا حاجة لرسول بعد رسول الله ﷺ ، إذن :
فالمناعة موجودة في أمة الإسلام ، ولو لم تكن هذه المناعة موجودة
في النفس أولاً ، وفي المجتمع ثانياً لتدخلت السماء بعد رسول الله
برسول جديد ومعجزة جديدة ليعيد الخلق إلى رُشدهم .

ولا شك أن في المجتمع طائفة تنتفع بهذا الفساد ، ويعيشون في
ترف في ظله ، فطبيعي - إذن - أن يدافعوا عنه ، وطبيعي أن يقصدوا
لدعوة الرسول التي جاءت لتعدل ميزان المجتمع ، وأن يقفوا له
بالمرصاد ؛ لأنه يهدد هذه النفعية ويقضى على مصلحتهم .

وإن كان الرسل السابقون قد تعرضوا لمثل هذا الاضطهاد ، فقد
تعرض رسول الله ﷺ لأضعاف ما تعرضوا له ؛ لأن اضطهاده ﷺ جاء
مناسباً لضخامة مهمته ، فقد جاءت الرسل قبله ، كل إلى أمته خاصة
في زمن محدد ، أما رسالته ﷺ فقد جاءت للناس كافة ، تعم كل
الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد إذن أن تكون مهمته
أصعب .

وهؤلاء الكبراء الذين ينتفعون بالفساد في المجتمع يظنون أن
رسول الله إذا لُوح له بالمال والنعيم يمكن أن يتنازل عن دعوته ،
ويترك لهم الساحة ؛ لذلك اجتمع صناديد قريش على رسول الله ،
يلوِّحون له بالمال والجاه والسلطان ، ليصدّوه عن الدعوة ويصرفوه
عنها ، هؤلاء الذين سماهم أستاذنا الشيخ موسى : دستة الشر ،
وكانوا اثنا عشر رجلاً ، منهم : أبو البختري^(١) ، وأبو جهل ،
وأبو سفيان ، والأسود بن المطلب ، وأمّية بن خلف ، والنعاص بن
وائل ، وعتبة بن ربيعة ، ومُنبّه بن الحجاج ، والوليد بن المغيرة ،

(١) أبو البختري : اسمه العاص بن هشام بن العارث . قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام :
هو النعاص بن هشام . [السيرة النبوية ١/ ٢٦٤] .

والنضر بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، وتُبعه من الحجاج ^(١١) .

لقد ذهب هؤلاء^(٧) إلى سيدنا رسول الله يقولون : « نحن وفد قومك إليك ، جئنا لنقدم المعضدة حتى لا يلومنا أحد بعد ذلك ، فإن كنت تريد مالا جمعنا لك الأموال ، وإن كنت تريد شرقا سودناك علينا » وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

وَفَرَّقَ بَيْنَ السَّامِ وَالشَّرَفِ : الْمَالُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ غَنِيًّا ، لَكِنْ دِيمًا لَا شَرَفَ لَهُ ، وَلَا مَكَانَةً بَيْنَ النَّاسِ ، وَهَنَاقَ مَنْ لَهُ شَرَفٌ وَسَيَادَةٌ ، وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ .

ونلاحظ أنهم ارتفعوا في مساومة رسول الله من المال إلى الشرف والسيادة ، ثم إلى الملك . فماذا كان موقفه ﷺ ؟ كان موقفه هو الموقف الذي مهد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له جبال مكة ذهباً ، فقال ﷺ : « بل أشبع يوماً فاشكر ، وأجوع ثلاثة أيام فاتضرع »^(١) .

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١ / ٢٦٤) أنهم تسعة نفر ، واستثنى ممن ذكرهم الشيخ : أمية بن خلف ، النضر بن الحارث .

هذا الوفد ذهبوا إلى أبي طالب وقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ كهلثنا، وعاب ميثنا، وسبّه أهلنا، وشتم آباءنا، فلما أن تكلمنا، ولما أن تخلى بيننا وبينه، فإذك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفبك فقال لهم أبو طالب قسواً رقيقاً، وردهم رداً جعيلاً، فأنصرفوا عنه، ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢٦٥/١) وانظر موقفاً آخر (٢٩٥/١).

(٢) هو : الوليد بن المغيرة في واقعة أخرى أنه قال لرسول الله ﷺ : يا ابن أبي كنف إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر عالاً جمعاً لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سؤمتك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملككنا علينا ، وإن كان هذا الذي يائيك تراه لا تستطيع رده عن نفسك ملأنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرك منه . [سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٢ - ٢٩٤] باختصار

(٢) عن أبي أمامة قال النبي ﷺ : عرض عليّ ربي لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ولكن أشبع يوماً واجوع يوماً وقال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جمعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٤٧) ، وأحمد في مسنده (٢٥٤/٥) . قال الترمذي : حديث حسن

وفى موقف آخر ، قال له جبريل : يُخَيِّرُكَ رَبُّكَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا
مَلَكًا ، أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا ؟ فقال : « بَلْ نَبِيًّا عَبْدًا » ^(١)

والنبي مالك منهج السماء ، والملك الذى يملك السيطرة بحيث
لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث
آتاه الله مَلَكًا لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يكن هذا الملك هو
المطلوب فى ذاته ، بدليل أن سليمان - عليه السلام - مع ما أوتيته من
الملك كان لا يأكل إلا الخوشكار يعنى : الخبز الأسمر غير النقى (الرَّءَةَ)
فى حين يأكل عبده ومواليه الدقيق الفاخر النقى ^(٢) ، فلم يكن سليمان
يريد الملك لذاته ، إنما ليَقْرَى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلتُ إليه ملكة سبأ بهدية لتستعمله بها وتُصَرِّفه عما
يريد رَدَّ عليها : ﴿ قَلَمًا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ
مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣٦) [النمل]

لذلك جاءته صاغرة تقول : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ
سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٤) [النمل]

إذن : مسألة المال هذه عُرِضَتْ على رسول الله قبل أن يقترحها
كفار مكة ، فإذا كان ﷺ قد رفضه مِمَّنْ يملكه ، فكيف يقبله مِمَّنْ
لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم : والله ما بى حاجة إلى ما تقولون ،

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (ص ٢٦٥) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٦٨٦) ،
قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٠ / ٩) : « فيه بقية بن الوليد وهو مدلس » . ومزاه
للطبرانى فى الأوسط وقال (٢١٥ / ١٠) : « فيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه ، وبقية
رجالہ رجال الصحيح » .

(٢) أخرج أحمد فى الزهد (ص ١٤١ طبعة دار الكتاب العربى - بيروت) عن عطاء رضى الله
عنه قال : كان سليمان عليه السلام يعمل الفروس بيده . ويأكل خبز الشعير . ويطلع
بنى إسرائيل الحواري . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (١٨٩ / ٧) فى تفسير آية ٣٥
- سورة ص . والحوارى هو الدقيق الأبيض النقى .

فلست طالب مال ، ولا ملك ، ولا شرف ، إنما أنا رسول الله أرسلتُ إليكم ، ومعى كتاب فيه منهجكم ، وأمرنى ربى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فإن جئتم على ما أحب فقد ضمنتم حظ الدنيا والآخرة ، وإن رددتم على قولى فإننى سأصبر إلى أن يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين^(١) .

فلجئوا إلى عم النبى ﷺ ، لعله يستطيع أن يستميله ، فلما كلمه عمه قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »^(٢) .

﴿ أذَلِكَ (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : ما أنتم فيه الآن من العذاب خير ، أم جنة الخلد التى وعد المتقون ؟ احكموا أنتم فى هذه المسألة وسنرضى بحكمكم . إنها إغاضة لأهل النار ، حيث جمع الله عليهم مفاصلة العذاب مع النظر إلى أهل الجنة وما هم فيه من النعيم ، ولو كانت الأولى وحدها لكانت كافية ، إنما هو فى العذاب ويأتى أهل الجنة ليُبَكِّتوه : انظر ما فاتك من النعيم !!

وفىها أيضاً تقرير لهم ، فليس هناك وجه للمقارنة بين الجنة والنار ، فأتت مثلاً لا تقول : العسل خير أم الخل ؛ لأنه أمر معروف بداهة .

وسبق أن تكلمنا عن الصراط ، ولما إذا ضُرب على متن جهنم ، والجميع يَمرون عليه ؛ لأن الله - تبارك وتعالى - يريد أن يجعل لك

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية بنحو هذا (٢٩٦/١)
(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٩٦/١) معزراً لابن إسحاق . أن قریشاً قالوا لآبى طالب : يا أبى طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فىنا ، وإنا قد استتبهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا وتسفیه أعلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننزله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين . فقال رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب هذه المقالة .

من مرائى النار التى تمرُّ عليها فوق الصراط نعمة أخرى تُذكرك
بالنجاه من النار قبل أن تباشر نعيم الجنة .

لذلك لا يمتن الله علينا بدخول الجنة فحسب ، إنما أيضاً بالنجاه
من النار ، فيقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ
فَازَ ۖ ﴾ (١٨٥)

فالحق - سبحانه وتعالى - يذكر لنا النار ، وإن من صفاتها كذا
وكذا ، أما فى الآخرة فسوف نراها رأى العين ، كما قال سبحانه :
﴿ ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ (٧) [التكوير] وذلك حين تكون على الصراط ،
فتحمد الله على الإسلام الذى أنجأك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل
نعمة منها أعظم من الأخرى .

وفى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ۖ ﴾ [الفرقان] كلمة
خير فى اللغة تدور على معنيين : خير يقابله شرٌّ ، وخير يقابله خير
أعظم منه . كما جاء فى الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير
وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلِّ خير »^(١) فكلاهما فيه
خير ، وإن زاد الخير فى المؤمن القوى ، وعادة ما تأتى (من) فى
هذا الأسلوب : هذا خير من هذا .

أما الخير الذى يقابله شر ، فمثل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ لَهُمْ خَيْرٌ
الْبَرِيَّةِ ﴾ (٧)

والجنة كما نستعملها فى استعمالات الدنيا : هى المكان المليء
بالأشجار والمزروعات التى تستر السائر فيها ، أو تستر صاحبها أن
يتنقل منها إلى خارجها ؛ لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغنى
بها عن غيرها ، لذلك أردفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله :
﴿ الْخُلْدِ ۖ ﴾ (١٥) [الفرقان]

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٣٦٦/٢ ، ٢٧٠) ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤)
وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إنن : فالجنة التي تراها في الدنيا مهما بلغت قليست هي جنة الخلد ؛ لأنها لا يد إلى زوال ، فعمرها من عمر دُنْيَاهَا ، كأنه سبحانه يقول لكل صاحب جنة في الدنيا : لا تغتر بجنتك ؛ لأنها ستؤول إلى زوال ، وأشد الغم لصاحب السرور أن يتيقن زواله ، كما قال الشاعر :

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالَ
لذلك يُطمئن الله تعالى عباده المؤمنين بأن الجنة التي وعدهم بها هي جنة الخلد والبقاء ، حيث لا يفنى نعيمها ، ولا يُنقص سرورها ، فلذاتها دائمة ، لا مقطوعة ولا معنوعة .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ (١٥)﴾ [الفرقان] الوعد هنا من الله تعالى الذي يملك كل أسباب الوفاء ، والوعد بشارة بخير قبل مجيئه لتستعد لأن تكون من أهله ، ويقابله الإنذار ، وهو التهديد بشر قبل مجيئه لتتلافاه ، وتجتنب أسباب الوقوع فيه .

وكلمة (متَّق) الأصل فيها مَنْ جعل بينه وبين الشر وقاية ، كما يقول سبحانه : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤)﴾ [البقرة] يعني : اجعلوا بينكم وبينها وقاية .
ومن العجيب أن يقول سبحانه : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ (١٩١)﴾ [البقرة] ويقول ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤)﴾ [البقرة] والمعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله القهرية وقاية ؛ لأنكم لا تتحملون صفات قهره ، والنار جُند من جنود الله في صفات جلاله ، فكأنه تعالى قال : اتقوا جنود صفات الجلال من الله .

وقوله تعالى : ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً (١٥)﴾ [الفرقان] أي : جزاء لما قدّموا ، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٦)﴾ [الحاقة] فهذا تعليل ما هم فيه من النعيم : أنهم كثيراً ما تعبوا ، واضطهدوا وعذبوا ، وجزاء من عذاب في ديننا أن نسعده الآن في الآخرة .

﴿وَمَصِيرًا ١٥﴾ [الفرقان] أى : يصيرون إليه ، إذن : لا تنتظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما تصير إليه حتمًا ، وتأمل وجودك في الدنيا . وأنه موقوت مظنون ، ووجودك في الآخرة وأنه باق دائم لا ينتهى ، لذلك يقولون : إياك أن تدخل مدخلًا لا تعرف كيفية الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ١٦﴾

في الآية السابقة قال سبحانه : ﴿جَنَّةُ الْخُلْدِ .. ١٥﴾ [الفرقان] وهنا يقول ﴿خَالِدِينَ .. ١٦﴾ [الفرقان] وهذه من المواضع التي يرى فيها السطحيون تكرارًا في كلام الله . مع أن الفرق واضح بينهما ، فالخُلْدُ الأول للجنة ، أما الثاني فلا ملها ، بحيث لا تزول عنهم ولا يزولون هم عنها .

وقوله : ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ١٦﴾ [الفرقان] كان امتياز الجنة أن يكون للذي دخلها ما يشاء ، وفي هذه المسألة بحث يجب أن نستنبه إليه ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ١٦﴾ [الفرقان] يعنى : إذا دخلت الجنة فلك فيها ما تشاء . إذن : لك فيها مشيئة من النعيم ، ولا تشاء إلا ما تعرف من النعيم المحدود . أما الجنة ففيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا في الجنة ، أما في الدنيا فلا أحد ينال كل ما يشاء - حتى الأنبياء - ألا ترى أن نوحًا عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده . فقال : ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. ١٧﴾ [مرد] فلم يجب إلى ما يشاء .